

قراءة فلسفية في الخطاب النسوي

بقلم/ الدكتورة آمال علاوشيش.

جامعة الجزائر (2)

الملخص:

الغرض من هذه الورقة البحثية هو تسليط الضوء على نوعية الخطاب الفلسفي حول المرأة، ذاك الخطاب الذي برغم تعارض طرفيه وتناحرهما إلا أن ما يجمعهما هو موقف المتطرف في النظر إلى جسد المرأة، بين من يعتبره عورة وغواية يجب ستره وإخفاؤه عن الأعين، وبين من ينظر إليه في مفاته على أنه علامة على التحرر والرقى، ونقصد بذلك الخطاب الديني المتطرف من جهة، والخطاب الإعلامي المتطرف بدوره من جهة أخرى، وكلاهما خطابان يهملان ويتجاهلان عن قصد النظر إليها باعتبارها كائناً مفكراً خلاقاً في كافة ميادين الفكر. هي نظرة ينبغي تصحيحها إذا أردنا للخطاب حول المرأة أن يمتلك فاعلية في التغيير الاجتماعي، خاصة في مجتمعاتنا وثقافتنا العربية.

Résumé:

L'objet de cet article portera sur les deux types de discours élaborés à nos jours sur la femme, notamment dans les sociétés arabomusulmanes. Un discours contradictoire et extrémiste qui l'a considérée d'un point de vue « religieux » comme un objet, à travers une dimension purement corporelle et charnelle et le discours médiatique lequel, sous prétexte de la libérer l'a transformée en un produit de consommation. Il est fort nécessaire de corriger une telle vision pour que la femme reprend son rôle efficace dans le changement social.

تجدر الإشارة منذ البداية إلى أنتمة صعوبات منهجية ومعرفية كبرى تعترض سبيل كل محاولة للتعامل التحليلي مع الجسد - عموماً - في الإسلام لسببين، الأول قلة الكتابات في هذا الموضوع والتي إن وجدت نجدها تركز على مسألة الجنس، والثاني صعوبة تجريد الجسد من الإطار الشرعي، خاصة إذا تناولنا الجسد الأنثوي أي جسد المرأة باعتبارها من التابوهات أو المحظورات.

في هذا السياق سنحاول من خلال هذه الورقة البحثية أن نبين أن الإسلام – المعتدل- إنما نظر إلى المرأة نظرة شمولية ولم يعتبرها مجرد أنثى، فهي الأم والأخت والزوجة والابنة ومن ثم فإن علاقتها بالرجل إنما هي علاقة تكامل، الأمر الذي يقتضي الاحتراس من الدعاية الإعلامية المفضضة التي تجعل منها سلعة قابلة للاستهلاك بكل الأشكال المتاحة، وهو الوجه الذي يصر عليه الخطاب الإعلامي العربي الذي ينحو في وجهته منحى غربياً محضاً كما في كل شيء آخر.

كانت أمم الأرض كلها تمتلئ المرأة وتبخسها حقها، فهي عند اليونان وسيلة للترفيه والمتعة، وعند الرومان سلعة للبيع، وفي التراث اليهودي مصدراً للخطيئة والإغواء وعند العرب عاراً ينبغي دسه في التراب، ولكن بقوم الإسلام تغير الوضع، فقد كرم الله بني البشر وفضلهم على الخلق أجمعين معلناً في الوقت ذاته على أن ميزان التفاضل بينهم هو التقوى والعمل الصالح وليس الجنس أو النسب أو الحالة الاجتماعية للفرد. يقول تعالى: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ))- الحجرات 13/49. غير أن ميزان الأفضلية الذي استحدثوه والذي يستند إلى القوة البدنية، جعلهم يستضعفون المرأة ويهينونها، فلم يرحبوا بمولدها وراحوا يتطهرون منها، وهو ما نلمسه في قوله تعالى: ((وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوِداً وَهُوَ كَظِيمٌ))- النحل 58/16. ولم تحظ بسبب ذلك عندهم بالعناية والاحترام الذي يحظى به الذكر، بل والأطفال من الأعراف الجاهلية قضت بوأدها. وضع لم تتخلص منه المرأة إلا بعد أن بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بدين أنصفها وأعاد لها الاعتبار وأثبت كرامتها بعد أن أهانها الناس والأعراف، ومنعها بحقوقها كما سوى بينها وبين الرجل في الأحكام تصحيحاً لميزان التفاضل بينهما في الأعمال، ولا مجال في هذا السياق لحصر التصوص التي أبرزت سمو مكانتها.

غير أننا الأمة الإسلامية عرفت حقاً تاريخية غفل فيها الناس عن هدي شريعتهم وهو ما انعكست نتائجه سلباً على المرأة بصفة خاصة، حيث خضع فيها التعامل معها للأعراف والتقاليد من جديد وليس لنصوص الشرع وضوابطه وكأنها تستعيد عصور الجاهلية الأولى وتحلّ إليها، وهو ما ناهضته حركة تحرير المرأة (Mouvement de la libération de la femme)، هذه الأخيرة التي ظهرت في المجتمعات العربية نتيجة انبهار وتشدق مفكرها بالحضارة الغربية، وحملت لواء الدفاع عن حقوق المرأة بغية إنصافها، وراحت المرأة بمقتضاها تعيش ظمأً جديداً اتخذ أشكالاً متنوعة، فهي تظلم حين يؤخر زواجها فتعنس، أو تمنع من الحمل والولد فتقلس، أو تزوج بغير إذنهما بمن لا ترغب، وتظلم عندما يسخط منها حين تولد أو تلعن وتُسب حين تكبر أو يُغالى في

مهرها فينصرفُ الخُطابُ إلى غيرها، وتُظلم عندما يُعتدَى على مالها أو حياتها وتُصوّر لها العفة بالرجعية والسفور والاختلاط بالمدينة والانفتاح، ويُقال لها أن القوامة القرآنية ضعفاً¹، والتعدّد ظلمٌ مع أن النصوص وبما أنفقوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ...)) - النساء 34/4، وقوله تعالى: ((...فَانْكُحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً...)) - النساء 3/4.

لقد ارتبطت حركة تحرير المرأة العربية بالنداء الذي أطلقه الطهطاوي (1801-1873) وهدى شعراوي (1879-1947) عام 1920 وبطرس البستاني (1883-1819) وأحمد فارس الشدياق (1887-1804)، واستكملها محمد عبده (1849-1905) والطاهر الحداد (1899-1935) في تونس، وخصوصاً قاسم أمين (1863-1908) في التسعينات من القرن التاسع عشر وذلك في كتابيه: تحرير المرأة والمرأة الجديدة، ولم يكن فكر هؤلاء الرواد فكراً واحداً بل مُتعدداً ومختلفاً بل ومتناقضاً أحياناً وهو ما يعود في نظر نصر حامد أبو زيد إلى أن خطاب النهضة حينها كان مشدوداً إلى بُعدين لا يفارقان بنيته: البعد الأول هو وطأة التطور متمثلاً في الاحتكاك المباشر بالمجتمعات الأوروبية المتقدمة سواءً عن طريق التعرّف على منجزاتها من بيئاتها الأصلية والتعرّف على سلوك أهلها وعوائدهم في بلادهم، أو في الاحتكاك بهم داخل أقطار الوطن العربي. أما البعد الثاني فهو بعد التقاليد والتراث مُتمثلاً في مبادئ الإسلام وتشريعاته².

وفي هذا السياق تنبغي الإشارة إلى أنّ هناك شخصيات نسائية عديدة ساهمت في بلورة هذه الأفكار التحررية، فإلى جانب هدى شعراوي نجد زينب فواز (1850-1914) في لبنان ورسائلها الزينية، ودرية شفيق ونظيرة زين الدين (1908-1976) في مصر وكتابها: "السفور والحجاب". مثل هذه الدعاوي انتشرت أفكارها في المجتمعات العربية والإسلامية في النصف الثاني من القرن العشرين بشكلٍ صارخ، وهو الأمر الذي أثار حفيظة الفكر الديني ودفعه إلى اتخاذ موقف الدفاع عن الهوية الدينية مع المطالبة طبعاً بالعودة إلى التقاليد المتوارثة وبدأت تظهر بذلك ملامح فكر جديد.

هذا، وبالإضافة إلى ما تقدّم ينبغي الوقوف عند ظاهرة الأنثوية (FÉMINISME). هذه الحركة التي تتمركز حول المرأة أو ما يسمّى بـ: "نظرية

¹ شبر الفقيه، المرأة العربية وإشكالية المجتمع الذكوري - رؤية في البعد السيكلوجي لدى الفرد المسلم تجاه المرأة، (بيروت: دار البحار، 2009)، ط1، ص12.

² نصر حامد أبو زيد، دوائر الخوف، قراءة في خطاب المرأة. (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1999)، ط1، ص59.

الحقوق الجديدة"، والتي يعتبرها عبد الوهاب المسيري جزءاً من الهجمة الشاملة التي يثوِّدها الغرب ضدَّ قيمنا وذاكرتنا ووعينا وخصوصيتنا، وهو الوضع الذي علينا أن ندركه ونعيه. هذا التيار الذي يرفض المجتمع الذكوري الذي جعل المرأة في حالة تبعية مطلقة للرجل، حيث يسعى إلى إلغاء كل أشكال التفرقة والتمييز بينها وبينه والتي تطال حتى الجانب البيولوجي منها، الأمر الذي يمسّ لا محالة خصوصية الأسرة وصورتها الإنسانية والشرعية (كأن تتكوّن من زوج وزوج، أو من زوجة وزوجة، أو من زوجة وعدة أزواج)، وهي بهذا تؤكد جانب الصراع بين الجنسين، والفرق من هذا يبدو واضحاً بينها وبين حركة تحرير المرأة. هذه الأخيرة لم تهدف سوى إلى إنصاف المرأة وتحريرها من القهر الاجتماعي والتاريخي الذي طالها، بينما تنسّم أفكار ومطالب الحركة الثانية بكونها أكثر تطرفاً وشذوذاً، نظراً لما تعتمده من قراءات جديدة للدين والتاريخ والثقافة، وذلك بسبب الفروق النوعية التي طالب بها الفريقان (مثلاً النظرة السلبية للإنجاب أو عبودية النسل كما تسميها سيمون دي بوفوار، وكذلك المساواة المطلقة بين الجنسين...).

1- المرأة في الخطاب الديني:

إنّ المقاربة التي نقترحها في هذا السياق هي نتيجة قراءة متأنية تستند إلى مقارنة بين خطابين في الفكر العربي المعاصر، موضوعهما واحد هو المرأة أو لنقل الأنثى لأنّ الفرق جلي بين الاثنين ولكتهما يعبران عن تيارين متطرفين على الرغم من انتمائهما إلى نفس الفكر، الأول تيار متشدد ومتنطع أقرّ دونية المرأة ودعا إلى تهميشها مستنداً في ذلك إلى فهم مشوّه ومغلوط للدين، والثاني تيارٌ حدائيٌ تنويريٌ أو هكذا يصف نفسه ذهب إلى رفض الحجاب، وبالتالي وجدنا أنفسنا أمام موقفين: تطرّف التقليديين وإباحية الحدّاثيين.

إنّنا نعلن منذ البدء بأننا لا نشكّ مُطلقاً في مشروعية ارتداء الحجاب من طرف المرأة على الرغم من تضارب الآراء حوله إلى يومنا، وهو الأمر الذي يعود في اعتقادنا إلى اختلاف المرجعيّات الثقافية بالدرجة الأولى، وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ((وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ))- النور 31/24 . و كذلك في قوله: ((يَا أَيُّهَا

النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ((- الأحزاب 59/33، ولذلك فإننا سنركز في هذه المرحلة على النظرة أو المنحى التراثي الذي تجسده السلفية المتطرّفة باعتبارها خطاباً دينياً مُتشدّداً.

هذا التّبار الذي عمّد إلى تصوير المرأة الأنثى على أنّها جسدٌ مدّسٌ مسكونٌ بالغواية والإغراء يجب إخفائه أو وأده بعيداً عن الأنظار، وهو الخطاب الذي يجعل منها جسداً مرغوباً بالفطرة الطّبيعية لدى الذّكور ومكروهاً ومُحتقراً في الوقت نفسه نظراً لدنسه وغوايته، مانحاً إيّاه من خلال ذلك بُعداً إيروسياً محضاً، والحجاب بذلك بالنسبة إليها إنّما يُمثّل تثبيتاً للهوية من جهة وقيداً أدبياً للاختلاط المسموح به بينها وبين الرّجل³، والمعنى أنّه يتحوّل إلى وأدٍ من نوع جديدٍ وبدعوى جديدةٍ.

هذا الخطاب الذي يسعى إلى تنميط المرأة ورسم حدود تحرّكها وكذلك رسم صورة لها مشوّهة وباهتة لم يبق تأثير مفعوله في حدود سلطة المكتوب على الورق، بل تجاوزها إلى سحر المرئي من خلال الإعلام العربي المعاصر، إعلامٌ يعمل على إحياء الممارسات التي عاشتها المرأة العربيّة في القرون الإسلاميّة الأولى وتخمينها⁴، وهو ما اتّضح بجلاء إبان الفتوحات الإسلاميّة بنتائجها التي كان لها وقعٌ حادٌ في تحويل بنية النسيج المُجتمعي وهيكلته على نحوٍ جديدٍ أثر بدرجة كبيرة وبطريقة مباشرة على وجود المرأة وحرّيتها، الأمر الذي ظهر من خلال تعدّد الجوّاري والإماء في الحضر واستباحتهن للجميع، وهو الواقع الذي اضطرّ الرّجال إلى حجب الحرّة والتشدد في تحجيبها⁵، وكان مؤسّسة الحريم تستعيد أنفاسها وتجددّها وتعاد لها الحياة⁶.

إنّ مثل هذه الثّقافة تستعيد من جسد الأنثى نهراً لتقدّسه ليلاً، حيث يُنظر إليه في مستويات ثلاثة هي: جسد العذراء - البنت - وهو ملكٌ للآب وكأنّه غير موجود في ذاته باعتبارها تحمل اسمه وشرفه (الجسد المقدّس)، جسم الأم باعتبارها آلة للإنجاب وتحمل اسم الرّوج (الجسد الذي يعطي الحياة)، وجسد الزّوجة وهو بالطّبع ملكٌ له باعتبارها موضوع للمتعة (الجسد المُستهي)، والمعنى الجليّ هو ارتباط الجسد بالرّجل أو الذّكر في الحالات الثلاث لأنّه موجودٌ من أجل الآب أو الرّوج أو الابن. بهذا يضع المُتشدّدون أنفسهم اليوم في

³ محمد عبد الوهاب يوسف، جسد الأنثى بين الخطاب الديني والخطاب الإعلامي، (بيروت: دار

الطلّيع، 2009)، ط1، ص10.

⁴ المرجع نفسه، ص72.

⁵ المرجع نفسه، ص ص(34-35).

⁶ المرجع نفسه، ص 75.

مواجهة التيارات المتنافسة السياسية، والفكرية الليبرالية، والعلمانية، وكذلك ضد الأسس المعرفية التي تقوم عليها الحداثة،

وهو كذلك ما جعل من الخطاب الإعلامي حول المرأة يعتمد على الموعظة الدينية ويركز على أدوارها التقليدية في المجتمع (واجبات الزوجية مثلاً)، وبالتالي كثيراً ما يتلبس بألفاظ التقديس واستدماج ألفاظ الجلالة في عباراته حتى يضمن لمقولاته التغلغل في الوعي العام أو وعي العوام، والمعنى أن جسد المرأة في ثقافتنا العربية الإسلامية يصبح مرتبطاً لا محالة بالحلال والحرام، والخوف والحيلة والمتعة والفتنة والغواية.

هذا التيار ينظر إلى الآخر " الغرب " نظرة اتهامية تأمرية تقوم على اعتباره عدواً متربصاً لا يأتي منه «خير»، وكأنه هو المسئول الأكبر عما يعانيه المسلمون من أوضاع مزرية وتخلف ومأس وفشل في التنمية والإنتاج والتعليم والتربية أيضاً، ونحن إنما بذلك نعمل على أن نلقي في روعه أن الإسلام سجان للمرأة وعدوها بامتياز باعتباره عدو اكتمالها الإنساني⁷، وبهذا فقد عملوا - المتشددون - على تعكير صفو الإسلام وهو من دعاويهم بريء، وهم بذلك يفتحون لأعدائه ثغرة لأتهم بصنيعهم هذا يشيدون أو يشدون حجارة صلبة أمام الحقوق التي أقرها الإسلام للمرأة. وتتحول تهمة الفتنة المزعومة التي يحاولون إلصاقها بالمرأة إلى تبرير حبسها في ما يسميه البعض باللباس الطائفي، وهو ما يتحول إلى ركن اتهام واضح ضدهم لأنها تُحلبنا على العكس إلى حالة الاختلال النفسي والهوس الجنسي المرضي الذي يتحكم فيهم، والذي لا يقرون بسببه على رؤية المرأة من منظار آخر سواه⁸، والمعنى أن الشهوة الجنسية عند هؤلاء إنما تعبر عن حقيقتهم المبيتة والتي تتعري إذا ما رفعنا حجاب العفة والكرامة الذي يحاولون تغليف المرأة به، بينما يغيب في تصورهم المرأة الإنسانية بشكل مطلق، فيكون مبدأ الحجاب بذلك هو بُعد الجسد وحده الذي يُضاف إلى مبدأ الاختلاط فيكتمان بعضهما ليُدوران في النهاية في فلك واحد هو موضوع: المرأة/ الجنس، المرأة/ اللذة، المرأة/ الخطيئة من خلال ما يطبقونه عليها من نظام يمكن من إقصائها ومحاصرتها وقطعها عن أية علاقة بالعالم الخارجي قد تؤدي إلى تدنيها وفتنتها بآثامها الشيطانية، وذلك عن طريق مُحشد البيت⁹، هذا الأخير سيكون مُحشداً مغلقاً يتخذ بُعدين: بعداً إقصائياً تأديبياً للمرأة/ اللعنة/ الخطيئة، وبعداً جنسياً مُتعوياً/

⁷ محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الزاكية والوافدة، (القاهرة: دار الشروق، 1990)، ط2، ص30.

⁸ شكري لطيف، الإسلاميون والمرأة مشروع الاضطهاد، (تونس: دار سحر، 2007)، ط3، ص97.

⁹ المرجع نفسه، ص98.

المرأة / اللذة¹⁰ يتم محاصرتها بداخله. والسؤال الذي نحب أن نطرحه في هذا السياق هو: هل المرأة وحدها تشكل مصدراً لخطر الفتنة والإغواء؟ وهل تُعتبر الغواية أنثى بالضرورة؟

نلمس مما تقدّم هجوم الخطاب الديني على خطاب النهضة الذي ساد في النصف الثاني من القرن 19 والذي حاول الوقوف على مشروع التمدن حين أقرّ بحالة التردّي التي وصلت إليها المرأة، عاملاً على استرجاع المرجعية الليبرالية ومُحاولاً ترسيخ آلية الانفتاح الإيجابي على قيم جديدة تهدف إلى تحريرها من واقع مزمري¹¹، وكأننا بذلك نعود إلى عصر الانحطاط من خلال إنتاج خطابات تعزف على نغمات التخلف والإثارة ونستعيد قصة خروج آدم من الجنة في صياغتها التوراتية حيث تتوحد المرأة بالحية والشيطان، ومن النص القرآني يقف تراث التخلف عند "كيدهن عظيم" ليجعل من الكيد صفة ملازمة للمرأة من حيث هي أنثى وذلك بعد أن يلقي في "الحب" بكلّ دلالات القصة - قصة يوسف وأبعادها الرمزية -¹²

لقد تحوّلت المرأة إلى ذلك الكائن المثير للشهوة المحرّك للغرائز، الباعث على الفتنة وأحبولة الشيطان وأصبح الحلّ الوحيد هو الوأد الذي كان يمارسه العربي البدوي في جاهليته، لكنّه الوأد داخل اللباس الأسود المغلق تماماً إلاّ من فتحتين للعينين: إنّه المعادل الموضوعي لعملية الدفن على سطح الأرض درءاً مقدّماً للشبهات وعملاً بالمبدأ الفقهيّ الأثير "درء المفساد لجلب المصالح" وهو مبدأ يُعنى جوهرياً بالمحافظة على الحال كما هو مهما كان حجم التخلف، إذا كانت الحركة وتحقيق المصلحة يحتمل - مجرد احتمال - أن تُفضي إلى بعض المفساد¹³

إنّ الخطاب الإسلامي المعتدل إنّما ينظر إلى المرأة نظرة شموليّة، من حيث هي جسداً وروحاً وعقلاً وعاطفة، كما ينظر إليها في جميع مراحل حياتها، إلى طفولتها وشبابها وشيخوختها وإلى أمومتها وبنوتها وحياتها مع زوجها، وكذا إلى محيطها الأسريّ وكونها فرداً من أفراد المجتمع، وإلى حياتها في الدنيا وما بعدها في جميع العوالم التي ستمرّ بها.

والارتواء العاطفيّ هو أمرٌ فطريّ في الطبيعة البشريّة؛ ولا فرق بين الذكر والأنثى في هذا الأمر حيث يحتاج كلّ منهما إلى الآخر بنفس الدرجة وإن تكلن

¹⁰ المرجع نفسه، ص 87.

¹¹ كمال عبد اللطيف، المرأة في الفكر العربي المعاصر نحو توسيع قيم التحرّر، (اللاذقية: دار الحوار، 2010)، ط 1، ص 28.

¹² نصر حامد أبو زيد، دوائر الخوف، قراءة في خطاب المرأة، ص 37.

¹³ المرجع نفسه، ص 38.

حاجة الرجال أقوى وأشدّ. ومن هنا كانت العلاقة بينهما هي علاقة تكامل بنظر الإسلام. هذه الحاجة المتبادلة نابعة من الطّبيعة التّكوينيّة للمرأة حيث يتدفّق منها العطف والحنان والرّقة غالباً، ومن الطّبيعة التّكوينيّة للرّجل حيث تتبدّى فيه الرّجولة والقسوة والخشونة غالباً، ومن هنا تطلّب المرأة فيه الحماية والطّمانينة والأمان كما يجد هو فيها حاجته إلى الاستقرار والسّكّون والمودة والألفة.

ولهذا فتشريع الحجاب في الإسلام هو لستر الجسد عموماً، وهذا الأمر لا يختصّ بالنساء بل يشترك فيه الرّجال لدواعي الحشمة، إلّا أنّه يغلب في المرأة لأنّ فيها تتوفّر دواعي العفّة والحياء بوضوح من جهة، ونظراً لتوافر مظاهر الافتتان والجذب من جهة ثانية.

إنّ المرأة المسلمة التي نشأت على أساس الالتزام الشرعي والديني، لها من الحياء ما يجعلها تستر كامل جسدها إلّا ما استثنى: الوجه واليدين، وذلك لأنّ اليدين تتعامل بهما مع الأشياء بشكل عمليّ والوجه لتتمكّن من الرؤية والتنقّس والتكلّم ومعرفة شخصها، أمّا باقي البدن فلا تلزمها ضرورات الحياة على إظهاره للأجانب والغرباء. إنّ الحجاب هو وسيلة تحفّظ المرأة من خلاله الجمال والرّقة والنّعومة التي يُمكن أن تفتن الرّجل الغريب فيطمع الذي في قلبه مرض.

إنّنا نعيش في واقعنا المعاصر اليوم وفي خضمّ التطوّر السريع المُبهر وضمن مؤامرات خفيّة الأصابع واضحة الآثار حرباً ضروساً تُشنّ على المرأة المسلمة لإخراجها من الدّائرة التي وضّعها فيها الإسلام، وأنّ أوسع باب ضمّ هذه المؤامرات اليوم هو جسدها وما يلحقُ به من لباس وزينة، الأمر الذي انجرّ عنه انخداع كثير من نساء المسلمين واغترارهنّ بالدّعوات واستدراجهنّ بالشّبّهات، وأصبحن زبوناتٍ لدور الأزياء وأدوات الزّينة حتّى عمّ البلاء وعظّم الخطب.

وقد كان الغرب سباقاً في هذا المجال حيث اهتمّ بموضوع جسدها اهتماماً كبيراً ورصد له الملايين بل المليارات من الدّولارات، بغرض كسب الأموال عن طريق المتاجرة به واعتباره سلعةً رخيصةً تعرض على القنوات والمجالات الهابطة، وهو الواقع الذي رُحنا نعيشه داخل مجتمعاتنا العربيّة والإسلاميّة من خلال ما تبثّه وسائل الإعلام لأنّنا مولعون بالغرب فولّينا وجوهنا شطره من غير أن نميّز بين الغثّ والسّمين فيما نستورده منه من أفكارٍ ومُنتجاتٍ، بل وصيرنا المرأة بذلك دميةً يعبث بها كلّ ساقطٍ بأنّ حولناها إلى كائن بلا هويّة ولا تاريخ ولا خصوصيّة ثقافيّة، وراحت قضية المرأة ترتبط بالنّظام الإمبرياليّ الذي يستندُ إلى النّمط الاستهلاكيّ السريع الذي يعرفه العالم في ظلّ ظاهرة العولمة.

إنّ للمرأة في الإسلام حقوقاً واضحةً وصريحةً منها حقّ التملك والميراث والبيع والشراء، وإبرام سائر العقود، ولها حقّ التعلم والتعليم، بما لا يخالف دينها، بل إنّ العلم هو فرضٌ عينيّ يَأْتُم تاركه ذكرراً كان أو أنثى. فلها ما للرجال تماماً إلا ما تختصّ به من دُونهم، أو بما يختصّون به دُونها من الحقوق والأحكام التي تلائم كلاً منهما على نحو ما هو مُفصّل في مواضعه من الشريعة الإسلامية السّميحة، بل إنّ الإسلام فوق ذلك أقرّ الإنفاق عليها وحُسْن معاشرتها وحذّر من ظلمها بأن جعل ذلك من التكاليف الشرعية، والمعنى أنّه أحاطها برعايةٍ شاملةٍ من جميع الجوانب.

إنّ الخطابات الدّينية الإعلامية المعاصرة ذات الطابع الدّيني الصّارم والمتشدّد والتي تشرف عليها قنواتٌ ذكوريةٌ، تبحث عن المحافظة على الدّين والإبقاء على قداسته بحفظ جسم المرأة وقمعه داخل طبقة اللّباس والبيت، وذلك في مقابل نظيرتها التّرفيحية المتساهلة إلى حدّ الميوعة والتي تبحث عن كسر أطر الاستعباد والانطلاق إلى فضاء الانفتاح والحرية - والحديث هنا دائماً عن المُجتمعات الإسلامية - ونحن نتساءل: ألا يعبّر الأمر في الحالين عن وهمٍ يكرّس شكلاً جديداً من أشكال الاسترقاق والإقصاء والتهميش؟

2- المرأة - الأنثى - في الخطاب الإعلامي:

يعمّد الخطاب الإعلامي على الرّغم من تناقضه مع الخطاب الدّيني المتشدّد - في الشّكل طبعاً - إلى أن يصل تقريباً إلى النّتيجة نفسها، حيث يعرض جسد المرأة عارياً أو شبه عاري ويستخدمه للترويج للسلع والأفلام والمسرحيات والأغاني ويبيع برسالة إلى المشاهد مفادها أنّ المرأة عبارة عن جسدٍ جميل مليء بالإغواء والإغراء ونداءات المُتعة، وبالتالي يعمل على استغلاله من النّاحية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية حاصراً إيّاه بذلك في البُعد الاستهلاكي.

هذه النّزعة الاستهلاكية التي تطوّلت على الإنسان فسلبته وعيه وأوقعته في التّشويّو (Réification) كما يقول هربرتماركوز H. Marcuse (1898-1979)، وتطوّلت على الطّبيعة وشوّهتها باسم الهيمنة عليها حتى أصبح وجود الإنسانية ذاته فيها مُهدّداً كما يقول هانسيوناس Hans Jonas (1903-1993).

والمعنى أن ليست المرأة كياناً إنسانياً جديراً بالاحترام والخُبّ والمودة والرّعاية وإنّما هي كائنٌ شيطانيّ مليءٌ بالألوان المحظّور. ولهذا نجد المتحرّش يحمل في تكوينه كلاً من الرّغبة الجنسيّة والعدوان تجاه المرأة التي يتحرّش بها، فهو يُريد أن يستمتع بجسدها دون اعتبار لها كإنسانةٍ مُحترمةٍ ليخطف منها ما يريد ويتركها بعد ذلك هملأ بلا أيّ اهتمامٍ أو رعايةٍ. وبالفعل قد تُبالغ

المرأة في زينتها لأنه ثمة معادلة أكيدة بين الأنثى والجمال وبالتالي بين الأنثوية والمتعة، حيث تجعل منها عملية الزينة والتجميل (الماكياج) كأننا مظهرياً بامتياز، أي كأننا من أجل الآخر، وبهذا المعنى تبرز العلاقة الأنطولوجية للمرأة بالجسد بوصفه رأسمالها الرمزي وموطن هويتها الذاتية، والزينة في هذا السياق إنما تُعبّر عن استراتيجية مظهرية لها طقوس ونوايا

14

والتواصل عبر هذه الاستراتيجية يرتبط بالغواية أو الفتنة لا محالة لأنه يحول الجمال إلى مظهر بصري، فالجمال استعراض يُعبّر عن دعوة للنظر والتأمل الحسي، ويعكس من خلال ذلك سلطة الأنثوية¹⁵. ومما ينبغي ملاحظته أن التركيز على الوجه له دلالاته لأن فيه تتركز أغلب الحواس، وحاسة الرؤية أي العينين على وجه الخصوص، فهو منطقة تعبيرية مهمة تقدّم خطاباً تشكل العين مصدراً له وتجميلها بذلك يحوله إلى ترسانة من المكونات التعبيرية، مثلها في ذلك مثل الفم. إنها موطن تحويل الآخر وامتلاكه واستعباده، وكأن الوجه المُجمل والعيّن تتحولان إلى جسد كامل يتكلم¹⁶، وحينها يغدو وجهاً بقناع يعمل على ممارسة الغواية وإن بشكل مُحتمٍ أي ليس كما في حالة البغايا اللواتي تمارسها بطريقة احترافية. والمعنى اختصار المرأة في بُعد واحد هو بُعد الجسد المُلهب ولذة إغرائه، ذلك الشيء القابل لكل ضروب التطويع والإخضاع. هذه المسألة التي يوليها الإعلام العربي المعاصر اهتمامه بشكلٍ فاضح ومُخجل.

لقد فتحت بلاد المسلمين كما يقول محمد الغزالي الأبواب لوسائل الإغراء كي تهيج الساكن من الغرائز، فالإعلان عن السلع في التلفاز تقوم به الفتيات المُتكشفات اللواتي تُشرفن على بعض البرامج ممن تقدّسن آخر تسريحات الشعر في الغرب إلى درجة تغييرها مرّات عدّة في اليوم الواحد¹⁷. إن من شأن وسائل الإعلام هذه أن تتسبّب في تحويل أطفال اليوم إلى وحوش في المستقبل نظراً لما تبثّه من قصص جنسي من خلال الإعلانات من كلّ حجم، وكذلك الأغلفة والصّور الخليعة والأفلام السّنيمايية الفاضحة بما تحتّ عليه

¹⁴ فريد الزاهي، الجسد والصورة والمقدّس في الإسلام، (المغرب: إفريقيا الشرق، 1999)، ط1، ص96.

¹⁵ المرجع نفسه، ص102.

¹⁶ المرجع نفسه، ص104.

¹⁷ محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الرّائدة والوافدة، ص 42.

من ممارساتٍ تتنافى والفطرة السليمة¹⁸، والمعنى أن الأمر لم يُعد مجرد كلمةٍ بذئيةٍ أو نظرةٍ جريئةٍ قد تُسيء إلى المرأة كفردياً إنما استفحال المرض ليتحول إلى وباءٍ.

لقد صارت أنوثة المرأة في واقعنا العربي المعاصر تتعرض إلى الكثير من العوائق، فهي تنفّر منها من جهةٍ بسبب تاريخٍ طويلٍ من التعسف، ومن جهةٍ أخرى بسبب الترسانة المُرعبة التي دخلت بها وسائل الإعلام إلى البيوت وأخذت تعمل على تسويق العدم والموت في أحضان الأسرة التي ترتفع فيها نسبة الأمية بشكلٍ كبيرٍ، مروّجةً للأنوثة المزيّفة – سيّدة الأعمال والراقصة...- والتي من خلالها نُدرك عُق الهاوية التي تداعت فيها المرأة، فهي تتعرّى بسهولةٍ لا لتسويق مساحيق الجسم فحسب بل حتى من أجل زُيوت السيارات والآلات الكهربائية في المطابخ مضيعةً بذلك صورة جنسها المميزة، ومكرسةً صورة مزيّفة تدفعها قوانين السوق وحركة البورصات والبنك الدولي.

لقد دخلت في حرب الماركات المسعورة ونسيت معركتها الحقيقية الأصلية وهي حماية الأسرة والمجتمع، لتدخل في ماراثون الاقتناء والوصول إلى أكمل صورة للتماهي مع الرجل¹⁹، وكأنّها تقع في حريم معاصرٍ صنعه الرجل لكن تضبطه قوانين السوق والعمل تحت غطاء التطور. والمعنى أن الأنوثة أصبحت عملية تأنيثٍ تعمل الثقافة على تعميقها لتخلق جسداً منتقى أو مصقّى وكأنّها تُمارس عملية انتخابٍ طبيعيٍّ، وهو ما يظهر بشكلٍ واضحٍ في إعلانات مسابقات ملكات الجمال واختيار المضيفات والمذيعات والسكرتيرات، بما ينجر عنها من إعادة صياغة الجسد وفقاً لشروطٍ معينةٍ من تجميلٍ وتجميلٍ وهيكلة عضلاتٍ، وبما يتضمنه ذلك من تكاليف ماديةٍ من جهةٍ وأمراضٍ مُستحدثةٍ مثل الأنوريكسيا (anorexia) والأمراض الجلدية²⁰، فتعيش المرأة باعتبارها أنثى عملية تحويلٍ من الطبيعي إلى الصناعي عبر الوسائط التي ترسّخت في المخيال الحضاري (الترافق والتمايل والإغراء...) والذي يلاحق جسدها المؤنث ويصرف عنه كلّ قيمةٍ معنويةٍ²¹، وهنا يتضح عجز الثقافة عن إيجاد أو ابتكار موقعٍ لها خارج سياق التأنيث، بحيث يُطلب منها إلى جانب

¹⁸ المرجع نفسه، ص 46.

¹⁹ كلايس مطر، *خلف حجاب الأنوثة*، (دمشق: دار ورد، 2006)، ط 1، ص 46.

²⁰ عبد الله الغدّامي، *ثقافة الوهم "مقاربات حول المرأة والجسد واللغة"*، (الدار البيضاء: المركز

الثقافي العربي، 1998)، ط 1، ص 52.

²¹ المرجع نفسه، ص 55.

ذلك أن تكون أنوثةً خرساءً تعزل جسدها عن اللغة ويكفي أن تُستحسن حركاتها بما ترسله من إشاراتٍ.

والمعنى أن الجسد المؤنث فارغٌ من العقل وهو ما تشهد به الأمثلة والوقائع²²، وربما نجد في صورة (فينوس Venus) نموذجاً له بوصفها صورةً صامتةً راكدةً بلا رأس ولا يدين، وهي إشارةٌ مجازيةٌ إلى عدم حاجة الأنوثة إلى رأس، وبالتالي فإنّه كلما تعطلّ العقل زاد الجمال.

في السياق ذاته، فإنّ القنوات الفضائية المرئية أصبحت من مؤسسات التشكيل الاجتماعي التي تعمل على بثّ خطاباتٍ للنمذجة انطلاقاً من برامجها المتنوعة في ظلّ هيمنة الصورة²³، متخذةً في هذا المسعى اتجاهين متناقضين شكلاً، الأول يركّز على كُؤن جسد المرأة من التابوهات (الجسد العورة) وهو ما تقوم به بعض البرامج الدينية، والثاني ما تختصّ به بعض البرامج والقنوات الغنائية (الجسد السّعة)، وهما خطaban يستلهمان مرجعيتيهما من مفهومين هما: الحماية والإغراء.

لقد عملت الفضائيات الغنائية على تخيين وإحياء حضور الغزل الفاضح وصُور الفجور والخلاعة والتّرف واللّهو والمجون الذي انعكس في أواخر الدولة الأموية وعلى امتداد نفوذ الدولة العباسية في دوائر البلاطات، وذلك من خلال استعراض جسد الأنثى الذي يفتنُ الأنظار ويسيل اللّعباب، عبر صورٍ رقميةٍ تستهلك المشاعر والأفكار، في شكل غناءٍ وطربٍ ورقصٍ يُحاكي الغرائز ويستهدف الشباب (الفيديو كليبات وما تتضمنه من نصوصٍ شهوانيةٍ، وما تقوم به بعض الفنانات من عمليات التجميل...)²⁴، وكأنّ الأجساد الفاتنة والتنافس على العري يشكّلان معبراً للفنّ. وحتىّ يكتمل مشهد النصّ الغريزيّ يعمدُ صنّاع الفيديو كليب إلى ابتكار قصّةٍ تتناسب مع كلمات الأغنية غالباً ما يكون الجسد الأنثوي بطلّها الرئيسيّ بما يسبّبه من إثارةٍ في ارتداء الجينز أو الميني جوب والذي كثيراً ما يحاكي البورنو غرافيا²⁵.

من هنا يتّضح أنّ المشكلة تعكس في عمقها أزمة الثقافة العربية، والمسئولية في هذا السياق مشتركةٌ بين المرأة ما دامت تختار رغم ما غرس في ذهنها بأنّها كائنٌ ناقصٌ، وبين الرّجل باعتباره يحتلّ الموقع الأول في تسيير شؤون المجتمع (الحكومات ووسائل الإعلام...)، وبالتالي فإنّ المسألة واقعةٌ بين تطرفين في الخطاب: بين مبدأ الملكية المقدسة (أمّ ترعى الأطفال ..) ومبدأ الملكية المشاعة

²²المرجع نفسه، ص 68.

²³محمد عبد الوهاب يوسف، جسد الأنثى بين الخطاب الديني والخطاب الإعلامي، ص 67.

²⁴المرجع نفسه، ص 91.

²⁵المرجع نفسه، ص 94.

أو المشتركة من خلال إباحة الجسد واختصاره في بُعد الإغراء، والذي إنما يُعبّر في حقيقة الأمر عن تواصلٍ لمؤسسات الحريم والجواري والإماء²⁶. يتضح إذن أنّ الصورة والجسد هما الأداة الرئيسية للإعلام المعاصر ووسيلة لممارسة التأثير الجماهيريّ المكثف خاصة على شريحة الشباب من الجنسين، وذلك من خلال الصورة الصحافية والتلفزيون والإعلانات والأنترنت، وكأنّ الحداثة في مجتمعاتنا العربيّة والإسلاميّة لابدّ أن تمرّ عبر مفاهيم الإباحيّة والتقليد اللامحسوب للغرب في أقصى عيوبه الأمر الذي يتحمّل مسؤوليته رجال الأعمال وحكوماتهم التي رضيت بتحقيق المشروع الغربيّ أو الترويج له على الأقلّ وكأنّه الحلّ الوحيد للبقاء وسط تيار العولمة، حتّى وصلت إلى اختزال الإنسانيّة كلّها في الجسد، وذلك من خلال مفارقة غريبة بعيدة تماماً عن العالمين الدينيّة والفلسفات على اختلافها. والمعنى أنّنا لا نزال نفتقد إلى حالة توازنٍ في تفكيرنا وقناعاتنا كأنّ لم نخرج من طور القصور العقليّ كما يقول إيمانويل كانط، سواءً كنّا نتحدّث باسم الدّين أو باسم الحداثة، وكأنّ المجتمع تمّ اختصاره في طبقتين هما: الرّجل الذنّب والمرأة الغاوية.

في الختام فإنّ الإسلام يريد من المرأة أن تظهر أمام المجتمع من خلال عقلها وإنسانيّتها، لا من خلال نظرةٍ دنيويّة تقوم على الشهوة والإثارة وإظهار المفاتن. وعليه ينبغي أن تُسلط الضّوء على ما هو أبعد من الجسد لأنّ قيمتها إنّما تكمن في إبداعها الفكريّ والعقليّ وفي جمالها القلبيّ والعاطفيّ وفي رقيّها النّفسيّ والرّوحيّ وفي طهارتها وسموّها وارتباطها بالله تعالى. إنّها كنزٌ إذا حافظنا عليه أو حافظت هي عليه بأن يكون مسثوراً فإنّه لن يكون عرضةً للسرقة أو السطو على الإطلاق.

نستنتج ممّا تقدّم أنّ الوضع الذي آلت إليه المرأة في مجتمعاتنا العربيّة المعاصرة وضعٌ مخزي وأثم تتحمّل مسؤوليته الأسرة والدّعاة والحكومات على حدّ سواء، ومنه فكلّا الخطابين - الدّيني والإعلامي - يصلان إلى نتيجة واحدة (على الرّغم من تناقضهما الظّاهري)، وكلاهما بحاجة إلى أن يراجع منطلقاته إذا كان هاجس التحرّر من سطو الآخر لا يزال يشكّل انشغالاً له، والمعنى أن يتمّ طرح القضايا الكبرى التي يرتبط بها مصير الشّعوب والمجتمعات ومعالجتها بموضوعيّة واعتدالٍ وبمعزلٍ عن كلّ أشكال التطرّف، وإعادة الاعتبار للمرأة باعتبارها إنساناً كاملاً إنسانيّة، وليس جسداً ببعدٍ استهلاكيّ محض.

²⁶المرجع نفسه، ص 99.

الهوامش:

- نصر حامد أبو زيد، دوائر الخوف، قراءة في خطاب المرأة، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1999)، ط1.
- محمد عبد الوهاب يوسف، جسد الأنثى بين الخطاب الديني والخطاب الإعلامي. بيروت: دار الطليعة، (2009)، ط1.
- فريد الزاهي، الجسد والصورة والمقدس في الإسلام، (المغرب: إفريقيا الشرق، 1999)، ط1.
- كمال عبد اللطيف، المرأة في الفكر العربي المعاصر نحو توسيع قيم التحرر، (اللاذقية: دار الحوار، 2010)، ط1.
- شكري لطيف، الإسلاميون والمرأة مشروع الاضطراد، (تونس: دار سحر، 2007)، ط3.
- شبر الفقيه، المرأة العربية وإشكالية المجتمع الذكوري (رؤية في البعد السيكلولوجي لدى الفرد المسلم تجاه المرأة، (بيروت: دار البحار، 2009)، ط1.
- محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الرائدة والوافدة، (القاهرة: دار الشروق، 1990)، ط2.
- كلاديس مطر، خلف حجاب الأنوثة، (دمشق: دار ورد، 2006)، ط1.
- عبد الله الغدّامي، ثقافة الوهم " مقاربات حول المرأة والجسد واللغة "، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1998)، ط1.

